# الشيطان والشرك بين النقل والعقل

د. قسطاس إبراهيم عبد الحليم [1]

[1] أستاذ مساعد جامعة حضرموت فرع المهرة سابقا

2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
العلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

**(AUST)**

ISSN : 2410-1818

# الشيطان والشرك بين النقل والعقل


## Abstract :

Science is the only way to general knowledge , and in especialy , know how to unifies of God [so know(that la ilaha illa allah)] Allah say.

The meaning of science here is the unifies which limited by book , sunnah and understanding of the predecessor that because of science have two sciences one is the life of this world and the other is Hereafter.

Science of the life:- Allah created its couses and transmit its seciets and make to get it to search and experience.

Science of the Hereafter:- has unfeen and God make to get it by good work that by revelation we never have revelation after prophet Mohammad [Mohammad is not the father of any of your men , but he is the messenger of Allah and the last of the prophet. And Allah is ever allaware of everything] Allah said.

It includes to this science in God and Hereafter this is the greatest of science God show up the unification in this book and in rule of this prophet. God make it the first thing , so we must know it before everything. Prophet Mohammad concern of this thing. He give it importance in all his life. Also all the prophets make the same thing because they know about unifies and from were came[ and we did not send any messenger before you but we revealed to him la ilaha illa ana so worship me] Allah said.

The most important results by my opinion:-

1- The mind must assent the transport and instinct of religion . There is not here any corflict between the mind and what the prophet said.
2- Seriousness of follow the steps of devil because it is the reason in every defeat.To a void loos follow the science and the revelation and because that .If you follow satan you will came out for Allah’s religion.
3- To accuracy and seriousness of polytheism.
4- The polytheism leave a lot of bad things on the individual and society.
5- A big wrong to understand the idolaters what are their duties , and they do not have right to deny anything without evidence.
6- In contrast we find clarity on the evidence by overnight God

ISSN : 2410-1818

in his book, on the deviation of the idolaters for the right approach.

The most important recommendation in this group:-

1- To be interest in this side because it is the only way to survive on the resurrection.[ verily, whosoever set up partners with Allah, then Allah has forbidden paradise for him and the fire will be his a bade] Allah say.
2- Because it can not spread the right and the divine tight with bad people.
3- To spread the unification of God, and to rejection the mantrap must be uniformity the first concerns of preachers, teachers, and educators and they must be careful of this subject [and most of them believe not in Allah except that they attribute partners unto him] Allah say.

**المقدمة :**

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

أما بعد ، فقد خلق الله تعالى الجن والإنس لعبادته سبحانه، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض إكراما منه سبحانه لهم قال تعالى:﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣] لتحيى هذه المخلوقات - لاسيما بنو آدم - حياة طيبة وفق نظام رباني لا مثيل له، ذلك لأن هذا النظام إنما هو من خالق الإنسان العالم بكل ما يحتاج إليه هذا الكائن سواء كانت حاجيات بدنية أو روحية، فخلقه في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤] هذا من جهة جسده، فلم يهب أحدا من خلقه نعمة العقل والتفكير والإرادة سوى هذا الكائن البشري .

وأما روحه فقد أولى الله تعالى لها عناية فائقة ومكانة عظيمة فأنزل لها منهجا ربانيا متكاملا لا مثيل له يشمل كل ما تحتاج إليه هذه الروح لتعيش حياة طيبة في الدنيا ولتصل بعد مفارقتها لجسدها إلى مرضاة ربها وخالقها ولتسعد بعد ذلك بحياة أبدية طيبة لا نهاية لها .

ISSN : 2410-1818

وقد شرع الله تعالى لهذا الإنسان الدين بكل تفاصيله التعبدية منها والسلوكية لجلب المصالح للعباد ودرء المفاسد، وهذه سنة فطر الله تعالى عباده عليها فما من إنسان إلا وهو يسعى لجلب مصلحة أو دفع مضرة إما بناء على شرع الله تعالى وإما وفقا لما يملي عليه عقله، وبناء على المعارف التي اكتسبها أو يكتسبها خلال حياته.

ولا توجد جزئية في الدين الذي شرعه الله تعالى لعباده إلا ولها فائدة، فهي إما أن تجلب له نفع دنيوي أو أخروي وإما أن تدفع عنه ضرر دنيوي أو أخروي، فإذا ما تعثرت جزئية من جزئيات هذا الدين السماوي بسبب امتناع الناس عن تطبيقها إلا وكان لذلك التعطيل تأثير واضح على الفرد والمجتمع، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل:١٨]، لكن لنضرب لذلك مثالا واحدا لتقريب الصورة وإزالة الشك .

فالسرقة مثلا لا تجوز في شرع الله وهي نموذج للتجاوز على حقوق الآخرين، والسارق متعدي على شرع الله متجاوز لنهيه، فأمر الله تعالى بقطع يد السارق ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨] لكيلا يتكرر هذا الفعل منه مرة أخرى فينتج عن ذلك خوف الناس على ممتلكاتهم وأموالهم فيزول الأمن وينعدم الاستقرار، كما يؤدي إلى استنزاف أموال الناس في إجراءات التحصين من ضرر السارق من حراس وكاميرات تصوير وشبكات مكهربة وغير ذلك من الإجراءات الناتجة جراء هذه الجريمة، علما أن هذه الأضرار إنما تترتب على وجود سارق واحد يعبث في أرض الله ويفسد فيها دون عقاب، فكيف لو كان هناك أكثر من سارق؟ فكيف لو كان هناك أكثر من جريمة كالقتل والزنا وشرب الخمر والظلم والرشى والخيانة ... الخ ؟ فكيف لو كانت تلك الجرائم تتجاوز حق المخلوق إلى حق الخالق سبحانه كالشرك مثلا حينئذ يظهر الفساد في الأرض ويزول الأمن وتعم الفوضى وتنتشر الرذيلة وتضطرب الحياة كما قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم:٤١]

وقد حاولت في هذه السلسلة أن أجمع بين النصوص القطعية الورود والدلالة، وبين ما ينقدح في ذهني بتوفيق الله من مفاهيم واستنباطات عقلية توافق تلك النصوص - بالإضافة إلى النقول من أهل العلم العارفين بالله السالكين سبيله - وتتناسب والظروف التي يعيشها القارئ في زمن انتشرت فيه وسائل المعرفة وتنوعت فيه أشكال التلقي، ذلك أن القارئ اليوم يحتاج إلى مزيد توضيح في مسائل التوحيد، بسبب البعد عن منابع العلم الأصيلة من جهة

ISSN : 2410-1818

وماشابها من مؤثرات دخيلة قد تسهم في تشتيت الفهم وتحجيم صورة التوحيد عنده إلى الحد الذي قد يجعله يتساهل بهذا الأمر .

**أهمية البحث** : يمكن معرفة أهمية الشيء بمعرفة أسبابه ونتائجه وفوائده وأضراره، ولا يخفى أن الشرك من المواضيع التي تناولها أعظم كتاب على الإطلاق وهو كتاب الله تعالى القرآن العظيم، واعتنى بذكر تفاصيله وأسبابه ودوافع معتنقيه وأثر سلوكياتهم في الدنيا وعاقبتهم في دار الجزاء، ومن هنا يمكنني إجمال أهمية هذا الموضوع بالنقاط التالية :

١) ضعف اطلاع المسلم فضلا عن عموم الناس على خطورة هذا الداء العضال.
٢) عدم الإحاطة بجوانب هذا الداء مما ينبئ عن خطر عظيم على البشرية جراء الإيغال فيه .
٣) الجهل بالدوافع التي ساقت الكثيرين للتشبث بالشرك
٤) آثار الشرك على السلوك العام للفرد وما ينبثق عن ذلك من أمراض سلوكية خطيرة
٥) آثار الشرك على المجتمع وما يتبع ذلك من تفشي الفساد في الأمم واضطراب استقرارها وزوال حضاراتها .

**خطة البحث** : اشتمل هذا البحث على مقدمة ومن ثم ذكر لأهمية البحث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع وتلاه ستة مباحث وهي كالتالي :

المبحث الأول : ماهية الشرك
المبحث الثاني : أسباب الشرك
المبحث الثالث : الشرك والخوف
المبحث الرابع : انتكاس الفطرة
المبحث الخامس : المشرك والقرآن
المبحث السادس : وحي الشيطان
الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات
ثبت المراجع
الفهرس

ISSN : 2410-1818

**الدراسات السابقة** : استفاضت الكتب السابقة واللاحقة في تناول هذا الموضوع، ولا أزعم أني أول من كتب فيه، بل إن شئت قلت أنه يصعب ذكر كل من ألف أو صنف في مجال التوحيد أو الشرك، إلا أنني وبعد توفيق الله تعالى قد تناولت هذا العنوان بشيء من التجديد في الأسلوب من خلال الجمع بين النصوص وبين ما ينقدح في ذهني بالإضافة إلى اقتباس بعض النصوص العقلية مع عزوها لأصحابها، محاولا سبك النص النقلي القويم مع الفهم العقلي السليم لأخرج بعد ذلك بفائدتين هما:

١) موافقة العقل للنقل وهذا أمر لا شك فيه لاسيما عند التأمل في كتب أهل العلم واستنباطاتهم هذا من جانب.

٢) ومن جانب آخر هو الحلاوة التي سيشعر بها القارئ عندما تلامس تلك المفاهيم قلبه ووجدانه مما يتيح له الاستمرار في مواصلة القراءة مع الفائدة المرجوة من جراء ذلك، والله أسأل أن يهدني إلى سواء السبيل.

**المبحث الأول : ماهية الشرك**

عرف العلماء الشرك بألفاظ كثيرة ولكني سأكتفي بتعريف النبي الكريم ﷺ للشرك، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندًا وهو خلقك"[١]، والندية في اللغة المضاهاة والمساواة، قال صاحب العين: الند ما كان مثل الشيء يضاده في أموره[٢]، وجاء في المعجم الوسيط : (الند) المثل والنظير[٣]، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥]

وقد جاء لفظ الأنداد بلفظ الجمع في ست مواضع في القرآن، إلا أنه لم يرد ولا مرة مفردا إشارة إلى أن من أشرك مع الله آلهة أخرى أنه موغل في اتباع الهوى فلا يكفيه إله واحد يعبده من دون الله بل لا يستطيع أن يتصور أن إلهه المخلوق يستطيع أن يدبر الكون بذاته لعلمه في قرارة نفسه صعوبة ذلك بمكان مما يضطره إلى عبادة آلهة

١- صحيح البخاري برقم: ٤٤٧٧ (١٨/٦)
٢- الفروق اللغوية (١ / ٥٣٥)
٣- المعجم الوسيط (٢١١/١)

ISSN : 2410-1818

أخرى كثيرة يختص كل منها بأمر من الأمور فتصير حينها أندادا متعددة كما قال تعالى حاكيا مقال المشركين : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]، بخلاف الخالق الذي عرفنا عن نفسه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ وذكر لنا من أسماءه وصفاته ما تعجز آلهة المشركين عن مضاهاته سبحانه، قال تعالى : [الأعراف:١٨٠]، ومن هنا يمكننا التنبه من أول وهلة إلى خطورة هذا الأمر لما فيه من الزيغ عن الحق أولا، ومن الابتعاد عن منطق العقل ثانيا .

الشرك هو الذنب الأعظم الذي لا ينفع مع حصوله عمل، وهو المعصية التي لايغفرها الله تعالى إلا بالتوبة قبل الموت ما لم فإن صاحبها يستحق عليها العقوبة الأبدية في الدار الآخرة، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨] بل إن الله تعالى حذر من هذه المعصية حتى أنبياءه ورسله الذين اختارهم اختيارا لتبليغ رسالاته فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥].

وقد ضرب الله تعالى في كتابه العزيز الكثير من الأمثلة موضحا فيها خطر الشرك وأثره السلبي على الفرد والمجتمع من جهة، ومحقه للأعمال في دار الجزاء من جهة أخرى، قال تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨] يقول السعدي موضحا تفسير هذه الآية : هذا مثل ضربه الله تعالى لقبح الشرك وتهجينه مثلا من أنفسكم لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجمال ﴿هَلْ لَكُمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشاركم في رزقكم وترون أنكم وهم فيه على حد سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟ ليس الأمر كذلك فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكا لكم فيما رزقكم الله تعالى، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضا مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله

ISSN : 2410-1818

شريكا من خلقه وتجعلونه بمنزلته، وعديلا له في العبادة وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟ هذا من أعجب الأشياء ومن أدل شيء على سفه من اتخذ شريكا مع اللّه وأن ما اتخذه باطل مضمحل ليس مساويا للّه ولا له من العبادة شيء ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل فلو فُصِّلَت له الآيات وبينت له البينات لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ولا لُبٌّ يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام ويوجه الخطاب[٤].

والمشرك يعبد تلك الأصنام أو غيرها من المخلوقات طمعا في جلب فائدة أو دفع ضرر، وهذا أمر بدهي كما أسلفنا، فكل إنسان يسعى لما فيه منفعته ؛ سواء كانت منفعة مادية أو معنوية، ولكنه لما كان عابدا لهذه المخلوقات بدون أمر من خالقه ولا دليل له على صحة عبادتها، فهو إذن عابد لهواه من دون اللّه، ذلك أن اللّه تعالى وضع لنا سنن ثابتة في كتابه العزيز لا يصح بحال من الأحوال تجاوزها أو معارضتها كقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[القصص:٥٠] فهذه الآية تعتبر قاعدة ثابتة وسنة إلهية تخبر بوضوح أن من لم يستجب للرسول الذي أرسله اللّه تعالى لعباده فهو متبع لهواه، معرض عن منهج خالقه مهما قدم من أسباب أو أظهر من نتائج، والسبب في ذلك جد بسيط، ألا وهو أن الخالق سبحانه أعلم بمصالح خلقه وما ينفعهم وما يضرهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك:١٤] فمثل من أعرض عن منهج خالقه واتبع هواه كمثل من يستعين بالأعمى لإرشاده طريق النجاة، فالمشرك يسلك طريقا تنفر الطباع السوية من قبوله ويتخذ لنفسه منهجا تأبى العقول السليمة أن تؤيده، لهذا وصف اللّه تعالى من كان هذا حاله بأنه عابد لهواه، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[الجاثية:٢٣] فيكون المشرك

[٤]- تفسير السعدي (١ / ٦٤٠)

ISSN : 2410-1818

حينئذ متخذا هواه دينا لنفسه ومنهجا لذاته فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه [٥] .

فإذا كان الأمر كذلك فإن من كان ذلك وصفه يصير كخلية سرطانية سرعان ما تدمر ما حولها من خلايا سليمة فيعم البلاء في الجسد كله، وهذا تماما حال المشرك بالله تعالى فإنه عبارة عن عنصر ضار يسبب هلاك نفسه وهلاك المجتمع الذي ينتمي إليه، لأنه يحاول نشر فكره الضال في بيئته، (وحينئذ لا يمكن أن تبنى قواعد الجماعات على أسس سليمة، ذلك لأنه عند تفشي الشرك فإن العلاقات الإنسانية تكون مبنية على مستلزمات الشرك وهي الجشع والتربص والحقد والكذب وسفك الدماء والعدوان والاستبعاد والإذلال، كل ذلك يؤدي إلى انفراط نظام العقد الإنساني الذي يتحول إلى فوضى لا ضابط لها ولا رابط، يسودها الخوف ويخيم عليها القلق وتتخللها الحروب التي لا تنتهي وحينئذ تصبح الحياة شقاء لا سعادة فيها وجحيما لا يطاق يعذب فيه البشر بعضهم بعضا)[٦] .

إن العلة التي احتج بها عبّاد الأصنام على عدم قبول دعوة الإيمان هي استحالة البعث والحياة الآخرة - حسب زعمهم - وهي بعينها العلة التي قادتهم للشرك بالله تعالى، حيث جعلوا صيرورة الإنسان إلى تراب وفنائه بعد الموت دليلا على عدم حصول البعث بعد الموت ومانعا من الإيمان بالله قال تعالى : ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:٨٢] في حين إنهم يلجئون إلى هذا التراب الذي استحالت إليه أجسادهم - واستبعدوا انبعاثهم منه مرة أخرى فيصنعون منه بأيديهم آلهة يعبدونها من دون الله، معتقدين أنها تضرهم وتنفعهم .

---

[٥] - جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم برقم : (١٤٤) باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا (١٢٨/١) ونصه : عن أبي مالك سعد بن طارق عن ربعي عن حذيفة قال كنا عند عمر فقال أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن فقال قومٌ نحن سمعناه فقال لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره قالوا أجل قال تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ولكن أيكم سمع النبي يذكر التي تموج موج البحر قال حذيفة فأسكت القوم فقلت أنا قال أنت لله أبوك قال حذيفة سمعت رسول الله ﷺ يقول تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلبٍ أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه قال وحدثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر قال عمر أكسراً لا أبالك فلو أنه فتح لعله يعاد قال لا بل يكسر وحدثته أن ذلك الباب رجلٌ يقتل أو يموت حديثاً ليس بالأغاليط قال فقلت يا أبا مالك ما أسود مرباداً قال شدة البياض في سواد قلت فما الكوز مجخياً قال منكوساً .

[٦] - دعوة التوحيد لمحمد خليل هراس بتصرف (٧٢-٧٣)

ISSN : 2410-1818

هذا التناقض العجيب عند عباد الأصنام هو بعينه الذي يلجأ إليه مشركوا هذا الزمان وإن تنوعت أساليبهم وتبدلت عباراتهم وتلونت آلهتهم، لأن كل من أشرك بالله تعالى شيئا من مخلوقاته وإن لم تك أصناما فإنه ينطبق عليه ما ينطبق على عابد الأوثان والأصنام، قال تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ* إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر : ١٣، ١٤] فمن هم الذين من دون الله ؟ إنهم كل مخلوق سواء كان وليا أو صنما أو شجرا أو حجرا أو جبلا أو غير ذلك، فإنهم ما يملكون من قطمير، أي : لا يملكون شيئا، لا قليلا، ولا كثيرا؛ حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي في حال الحاجة والضر لنفعكم ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنها إما أن تكون جمادات لا تعقل وإما لأنهم موتى فما عادوا يسمعون، ثم يقول سبحانه ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي جدلا حتى لو سمعوا دعائكم فليس لديهم القدرة على الاستجابة لكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فسمى ما يعتقده المشركون بالله تعالى شركا، ثم قال ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك بهذا أصدق من الله تعالى .

والإيمان بالله يدعو للجد والسعي للعمل الصالح بل لا نجد آية تدعو للإيمان إلا وهي مقرونة بالدعوة للعمل الصالح، ومن هنا يمكننا القول بأن الإيمان بالله سبب لكل خير في الدنيا والآخرة والشرك بالله سبب لكل شر في الدنيا والآخرة، يقول الرازي : واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويدل عليه وجوه:

**أحدها:** أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى : ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] فلما كان الكفر سبباً لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سبباً لعمارة العالم .

**ثانيها:** الآيات منها هذه الآية ومنها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ [الأعراف : ٩٦] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ

ISSN : 2410-1818

أَرْجُلِهِم﴾[المائدة : ٦٦] ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن : ١٦] ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّه مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق : ٢ ـ ٣] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لانَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾[طه : ١٣٢]

**ثالثها:** أنه تعالى قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات : ٥٦] فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية

**رابعها:** أن عمر خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار، فقيل له : ما رأيناك استسقيت، فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء - المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة - ونوءه يكون عزيزاً شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطيء، وعن بكر بن عبد الله: أن أكثر الناس ذنوباً أقلهم استغفاراً، وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوباً، وعن الحسن : أن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال : استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية[٧] .

ولذلك حينما قيل لأعرابي : هل تحدث نفسك بدخول الجنة ؟ قال : والله ما شككت في ذلك قط وإني سوف أخطو في رياضها وأشرب من حياضها وأستظل بأشجارها وآكل من ثمارها وأتفيأ بظلالها وأرتشف من قلالها وأعيش في غرفها وقصورها، قيل له : أفبحسنة قدمتها أم بصالحة أسلفتها ؟ قال : وأي حسنة أعلى شرفا وأعظم منزلة من إيماني بالله تعالى وجحودي لكل معبود سوى الله تبارك وتعالى، قيل له: أفلا تخشى الذنوب ؟ قال : خلق الله المغفرة للذنوب والرحمة للخطأ والعفو للجرم وهو أكرم من أن يعذب محبيه في نار جهنم فكان الناس في مسجد البصرة يقولون لقد حسن ظن الأعرابي بربه وكانوا لا يذكرون حديثه إلا انجلت غمامة اليأس عنهم وغلب سلطان الرجاء عليهم، والشاهد من هذه القصة أنه جعل توحيده لله وإيمانه به وعدم الشرك بربه علامة ووسيلة لدخول الجنة والنجاة من النار،

٧- تفسير الرازي (٤٥٤٢/١)

ISSN : 2410-1818

وأي إيمان أرجى من توحيد الله وأي علامة أزكى من أن يكون العبد مربوبا مستسلما لمولاه .

**المبحث الثاني : أسباب الشرك**

المشرك إنما يعرض عن الحق وعن النور الإلهي ويلجأ إلى الشرك بالله تعالى لأسباب كثيرة :

١) منها ما هو برغبته وإرادته، ويدخل في ذلك المودة الحاصلة بين المشركين جراء شركهم

٢) ومنها ما هو نتيجة جهله وغباوته وتقليده الأعمى لمن سبقه من آباءه، وأولياءه وعلى رأسهم الشيطان الرجيم

ولا يوجد مشرك يشرك بالله تعالى نتيجة تسلط المستكبرين عليه، قال تعالى حاكيا حال المستكبرين والمستضعفين في النار ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾[سبأ :٣٢]،

فما كان من الشرك نتيجة الرغبة فإن سببه اتباع الهوى، لأنه لما كان الشرك معناه أن تجعل مع الله آلهة أخرى بدون دليل ولا برهان صار جليا كيف أن المشرك يغلب هواه على الحق، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾[النجم:٢٣]

يقول سيد طنطاوي: ما يتبعون إلا الظنون وما تهواه أنفسهم المحجوبة عن الحق، والحال أنه قد جاء إليهم ووصل إلى مسامعهم من ربهم ما يهديهم إلى الصواب لو كانوا يعقلون، وأكد سبحانه هذه الجملة بلام القسم وقد، لتأكد الخبر، ولزيادة التعجب من أحوالهم التي بلغت الغاية في الغرابة، والتعبير بقوله : ﴿جَآءَهُم﴾ يشعر بأن الحق قد وصل إليهم بدون عناء منهم، ولكنهم مع ذلك رفضوه وأعرضوا عنه، والتعريف في لفظ ﴿الهدى﴾ يدل على كماله وسموه، أي: ولقد جاءهم من ربهم الهدى الكامل الذي ينتهي بمن يتبعه إلى الفوز والسعادة [٨] .

٨ - الوسيط لسيد طنطاوي (٧١/١٤)

ISSN : 2410-1818

ولعل من أسباب الوقوع في الشرك والتزامه منهجا في الحياة الدنيا هو نتيجة الألفة والمودة الحاصلة بين المشركين نتيجة اجتماعهم على آلهتهم، فغالبا ما تكون آلهتهم محسوسة مشاهدة كالأصنام أو المراقد والأضرحة أو الأشجار أو الأبقار أو غير ذلك، فإن مشاهدتهم لها ولكبرائهم الذين يجمعون الناس عليها قاصدين بذلك نفعا ماديا أو معنويا يجعل كل هذا مولدا للألفة بينهم وصانعا مودة مزيفة تجمعهم .

لذا نجد أن الحق تبارك وتعالى أقر إبراهيم عليه السلام على ما قاله في هذا الشأن وأثبته في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥] فالمشرك يجد سعادة غامرة حين يلتقي بأوليائه من شياطين الجن والإنس فيزين بعضهم لبعض زخرف القول غرورا بدون دليل ولا برهان، لكن هذه المودة العاجلة سرعان ما يزول نفعها ويضمحل أثرها عند انقطاع النفس وعروج الروح إلى خالقها .

يقول ابن كثير في بيان معنى الآية: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم هذا يُحَصّل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا ، فـ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي : يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]،وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، وقال هاهنا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، ومالكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك[٩].

[٩]- تفسير ابن كثير (٦ / ٢٧٢)

ISSN : 2410-1818

إلا أن من أهم الأسباب التي قادت المشرك للولوج في هذه المعصية هو الشيطان الرجيم، وهو الذي استبقاه الله فتنة لكثير من عباده، ولهذا نجده حينما يتبرأ من أوليائه يوم القيامة إنما يتبرأ من شركهم به واتخاذهم له أولياء من دون الله، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢] فقوله ﴿أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي جعلتموني شريكا ومعبودا من دون الله، وأيضا سمى الله تعالى طاعة الشيطان عبادة كما في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يس:٦٠] يقول ابن كثير : هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس: ٦١] أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به[١٠]، وهنا سؤال: أيهما أعظم؟ كيد الإنسان أم كيد الشيطان؟

لقد أجاب القرآن عن هذا التساؤل بوضوح فقال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٧٦] فالآية تخبر بأن كيد الشيطان ضعيف، لكن كيف يكون كيده ضعيفا ومع هذا نجده يستطيع أن يضل الفئام من الناس ويستدرجهم ويغويهم بهذه البساطة رغم تحذيرنا منه ؟ لاسيما أنه العدو الأول لأبينا آدم فهو الذي أغواه وأخرجه من الجنة وكان سببا في إنزاله إلى الأرض، قال تعالى حاكيا عن إبليس مقالته في تلك الحادثة ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:٨٢]

في آيات أخرى نجد أن كيد الإنسان أعظم من كيد الشيطان، وإذا ما تناولنا الإنسان بقسميه (الذكور والإناث) فإننا نجد أن القرآن قد تناول كلا الصنفين وبين مقدار ما يمكن أن يكيده أحدهما للآخر، فقال سبحانه حاكيا على لسان

١٠- تفسير ابن كثير (٦/ ٥٨٤)

ISSN : 2410-1818

العزيز﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٨] يقول الشنقيطي :هذه الآية الكريمة بيان في أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، لأن قوله في النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨]، وقوله في الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [٤/٧٦]، يدل على أن كيدهن أعظم من كيده(١١).

ولعل العلة من اتخاذ الشيطان النساء حبائل يستغوي بهن الضعفاء من الرجال هو عظم كيدهن حتى يكدن أن يتفوقن عليه في وسائل الاستدراج والإغواء، يقول الآلوسي : ولعظم كيد النساء اتخذهن إبليس عليه اللعنة وسائل لإغواء من صعب عليه إغواؤه، ففي الخبر «ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء» وحكي عن بعض العلماء أنه قال : أنا أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء: ٧٦] وقال للنساء : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [ يوسف : ٨٢ ] ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به، ولا يخفى أن استدلاله بالآيتين مبني على ظاهر إطلاقهما ...(١٢).

كما أخبر سبحانه عن الرجال أيضا بما أخبر به عن النساء مبينا حال الشطر الآخر من عالم الإنس، قال تعالى : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف:٥] فهذه الآية تخبر بأن كيد الرجال لا يقل عن كيد النساء، بل ربما أن كيدهم أعظم من كيد النساء، فقد كرر الفعل (كاد) بالمصدر(كيدا) ومعلوم أن تكرار الفعل بصيغة المصدر يفيد المبالغة في التأكيد، وهذه قاعدة لغوية كما لا يخفى، مثال ذلك قوله تعالى مخبرا عن تكليمه لموسى عليه السلام﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [النساء:١٦٤] أي كلمه تكليما مباشرا ليس بينه وبينه سوى الحجاب وليس عن طريق وحي، وقال تعالى ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ [الفجر:٢١] أي حتما دكا شديدا لا يبقى بعده شيء من معالم الأرض لا الجبال ولا غيرها، فتبين مما تقدم أن كيد الإنسان ذكورا وإناثا أعظم من كيد الشيطان.

---

١١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٣/ ٣٢)

١٢- تفسير روح المعاني للآلوسي (١٥٧/٤)

ISSN : 2410-1818

لكن قد يتبادر إلى الذهن أن يكون كيد الشيطان أعظم لعداوته الظاهرة، لاسيما وقد أقسم على الله أن يغوي بني آدم أجمعين؟ بل إن الله تعالى حذرنا عداوته بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]؟

إن الشيطان وإن لم يكن له سلطان على المؤمنين إلا أن سلطانه يظهر على أتباعه وأولياءه، يقول صاحب أضواء البيان : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله، وأن سلطانه إنما هو على أتباعه الذين يتولَّونه والذين هم به مشركون، وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، وقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩ -٤٠] واختلف العلماء في معنى السلطان في هذه الآية، فقال أكثر أهل العلم هو الحجة، أي ليس للشيطان عليهم حجة فيما يدعوهم إليه من عبادة الأوثان، وقال بعضهم: ليس له تسلط وقدرة على أن يوقعهم في ذنب لا توبة منه، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ الذين يطيعونه فيوالونه بالطاعة، وأظهر الأقوال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله ومعنى كونهم مشركين به هو طاعته في الكفر والمعاصي؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس:٦٠]، وقوله عن إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم:٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات[١٣].

كما يقول أيضا في موضع آخر في تفسيره لقول الله عز وجل : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] : الاستثناء يدل على أن له سلطاناً على من اتبعه من الغاوين؛ مع أنه نفى عنه السلطان عليهم في آيات أُخر ؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ. . .﴾ الآية [سبأ : ٢٠ -٢١] فالجواب هو: أن السلطان الذي أثبته له عليهم غير السلطان الذي نفاه، وذلك من وجهين:

[١٣] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٧ / ٢٣١)

**الأول:** أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزيينه، والسلطان المنفي هو سلطان الحجة؛ فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أَنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان، وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن.

**الثاني:** أن اللّه لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكنهم هم الذين سلّطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في حزبه، فلم يتسلط عليهم بقوة؛ لأن اللّه يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦]، وإنما تسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم[١٤].

وأيضا فقد ورد في صحيح السنة أن لكل إنسان شيطان أو قرين موكل به يوحي إليه ويوسوس له، فعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك يا رسول اللّه؟ قال وإياي إلا أن اللّه أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير )[١٥] .

أما شياطين الإنس فقد أخبر القرآن بأنهم هم وشياطين الجن في حالة وئام فيما بينهم يوحي بعضهم لبعض، فلا يقتصر الأمر على إيحاء شياطين الجن لأوليائهم من شياطين الإنس بل الأمر أبعد من ذلك، قال سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:١١٢] يقول ابن كثير : أما شياطين الإنس، فالشياطين التي تضل الإنس وشياطين الجن الذين يضلون الجن، يلتقيان، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضْلِل أنت صاحبك بكذا وكذا، فيعلم بعضهم بعضا[١٦]، ويقول ابن القيم: فالموسوس نوعان إنس وجن فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ويشتركان في الوسوسة [١٧].

---

١٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٧ / ٢٣٣)

١٥ - صحيح مسلم برقم :٢٨١٤ باب : تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٤ / ٢١٦٧)

١٦ - تفسير ابن كثير (٣ / ٣٢٠)

١٧ - التفسير القيم لابن القيم (٢ / ٣٢٨)

ISSN : 2410-1818

ومن الجدير بالذكر فإن مدافعة شياطين الجن تختلف عن مدافعة شياطين الإنس فإن مدافعة الكيد المحسوس لا تكون كمدافعة الكيد المعنوي المدسوس، فطالما اختلفت الوسائل كذلك تختلف السبل، فأما بالنسبة لشياطين الإنس فإن مدافعتهم بالتي هي أحسن يعني بأفضل ما يمكن من القول والفعل، وهذا يتناسب وطبيعة الإنسان الذي يميل إلى ما هو مشاهد ومحسوس فنعامله بذلك، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، وأما شياطين الجن فإن مدافعتهم تليق هي الأخرى وطريقة كيدهم وهو التعوذ منهم، ولذلك أمرنا سبحانه أن نستعيذ من شر شياطين الجن بقوله : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[فصلت:٣٦] يقول صاحب أضواء البيان : بيّن في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن، فبين أن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته، وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه، قال في الأول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقال في الثاني: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف:٢٠٠]، وبين هذا الذي ذكرنا في موضعين آخرين:

أحدهما: في سورة المؤمنون، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[الْمُؤْمِنُونَ: ٩٦]، وقال في الآخر: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[الْمُؤْمِنُونَ: ٩٨]

والثاني: في سورة فصلت، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، وزاد هنا أن ذلك لا يعطاه كل الناس، بل لا يعطيه الله إلا لذي الحظ الكبير والبخت العظيم عنده، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:٣٥]، ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت :٣٦][١٨] .

١٨ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨ / ٩٠)

ISSN : 2410-1818

فشياطين الإنس أشد على بني جنسها من شياطين الجن، وشيطان الجن أشد على أوليائه من شياطين الإنس، ولهذا قال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا.

إن الفرق بين الكيدين هو أن كيد الإنسان محسوس ملموس تشاهده العين وتسمعه الأذن وله تأثير على الجوارح وتتأثر به حواس الإنسان تأثرا مباشرا كما لا يخفى، فالمحسوس أشد تأثيرا على النفوس من غير المحسوس، ألا ترى أن الناس يؤثرون العاجلة على الآخرة وما ذلك إلا لأنها محسوسة بخلاف الآخرة التي هي علم غيبي عنا، ومثله ضرب المثل فإنه أشد تأثيرا على السامع من مجرد الخبر لأن المثل يقرب إلينا الغائب بصورة الحاضر المشاهد بخلاف الخبر الغير مشاهد، فكيد الشيطان محصور بالوساوس التي يلقيها في القلب والتي سرعان ما ينفر منها المتيقظ الذاكر، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢] فالله تعالى ينفي عن إبليس سلطان القوة والتأثير على أتباعه سوى دعوته الخفية لبني آدم، وهذا ما يؤيده الطاهر بن عاشور في تفسيره قائلا: لأن تأثير العلم الحسّي على المزاج الإنساني أقوى من العلم العقلي لعدم احتياج العلم الحسّي إلى استعمال نظر واستدلال، ولعدم اشتمال العلم العقلي على تفاصيل الكيفيات التي تحبّها النفوس وترتمي إليها الشهوات، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة : ٢٦٠][١٩].

مما تقدم فإنه يمكننا أن نوضح العلاقة بين الشرك وأثره على المشرك من جهة مقارنته بالكبائر وأثرها على مرتكبها، وما يترتب على مرتكب كل منهما من جهة أخرى، فالشرك أعظم الذنوب، وعقوبته الخلود في النار لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَيَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[النساء:٤٨] في حين أن مرتكب الكبيرة عاص إذا مات على التوحيد فهو في رحمة الله إن شاء عذبه وإن شاء

١٩ - التحرير والتنوير. الطبعة التونسية (١٤ / ١٥٩)

ISSN : 2410-1818

غفر له، لكنه غير مخلد في النار، وهذا ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة استنادا إلى النصوص القطعية الثبوت والدلالة، وليس هنا محل سردها .

وإذا ما أردنا أن نعرف سبب هذا الفرق بين الشرك وبين الكبائر - من ناحية تأثيره العملي العقلي على صاحبه تحديدا وليس كحكم شرعي – نجد عند التأمل أن الشرك ليس له تأثير محسوس على الإنسان فالمشرك إنما يشرك بالله ما لم ينزل الله به سلطانا، بلا دليل ولا مردود محسوس عليه سوى الظنون المجردة التي يزينها الشيطان لصاحبها، قال تعالى:﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٤٣] ومثله قوله تعالى:﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال:٤٨] وغيرها من الآيات التي تخبر بأن ما يقع فيه المشرك من شرك بالله تعالى إنما هو تزيين من الشيطان بوساوسه الخفية التي يوحيها لأولياءه فحسب، ومع ذلك تجد المشرك يعبد ما لا حقيقة له ولا دليل له عليه بل ولا مردود محسوس يعود عليه بالنفع كما يعود على مرتكب الكبيرة، فكان عقاب المشرك الخلود في النار قال تعالى ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]، بخلاف المعاصي فإن لها وقع في النفس وتأثير محسوس وربما يعود بعضها بمنافع على صاحبها، ففي معصية معاقرة الخمر مثلا قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ الآية [البقرة:٢١٩] فأثبت الله تعالى للخمر منافع، فشارب الخمر يحس بنشوة الخمر حين يشربها وينتفع حين يبيعها إلا أنه يكون عضوا فاسدا في المجتمع بزوال عقله بها وهذا هو إثمها، وكذا السارق يعود عليه مردود مادي إذا سرق إلا أنه يضر غيره ويسلب الأمن من الناس، والزاني يحس بنشوة الزنى ولو للحظات إلا أن ما يفسده بهذه المعصية أضعاف ما يعود عليه من النفع، وهكذا بقية المعاصي فإن لها مردود حسي على مقترفها .

ISSN : 2410-1818

ومما تقدم يصبح الفرق جليا بين الكبائر وبين الشرك، فشتان بين من يقع في معصية تجره أسبابها ومنافعها إليها، وبين من يقع في معصية لا يوجد لها أي تأثير محسوس على صاحبها .

**المبحث الثالث : الشرك والخوف**

لن يستطيع الإنسان أن يفكر بالنافع ولا يمكنه الإبداع والإنتاج لطالما الخوف محيط به ومسيطر عليه، ويبقى الخائف حبيس ظنونه وأوهامه، والخوف يتولد نتيجة تأثير مصدر خارجي على الإنسان بغض النظر عن نوع ذلك المخوف، فالخوف من المجهول نوع من أنواع الخوف كالخوف من غضب الطبيعة – كما هو تعبير اللادينيين - وهذا الخوف يأتي من خلال نقل الأساطير والقصص الخيالية عن الآباء دون الرجوع إلى مصدر الوحي الذي فسر لنا الكثير من تلك الظواهر، ولا الالتفات إلى التطور العلمي وما رافقه من تفسيرات علمية لكثير من الظواهر الطبيعية.

ونوع آخر من الخوف مصدره شياطين الإنس وهو الخوف الذي يفرضه من نصب نفسه وكيلا عن الله، همه الأول والأخير العيش على معاناة الآخرين، وهذا النوع من شياطين الإنس هم السبب الرئيسي لوقوع غالب الناس في الشرك الأكبر، لأن الخوف هو أحد أهم أسباب الخضوع والانقياد للمخوف، فالله سبحانه جعل الخوف منه سببا للنجاة ولسلوك صراطه المستقيم، قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾[الإسراء:٥٧] يقول أبو بكر الجزائري في تفسير هذه الآية : أي أن أولئك الذين يدعوهم الجهال من الناس ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم هم أنفسهم يطلبون الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه لأن عذابه تعالى كان وما زال يحذره العقلاء، لأنه شديد لا يطاق فكيف يُدعى ويرجى ويخاف من هو يدعو ويرجو ويخاف لو كان المشركون يعقلون[٢٠].

فكما أن رجاء رحمته سبحانه والطمع فيما أعده لعباده المتقين سبب للانقياد للخالق، فالخوف من عذاب الله تعالى أيضا وسيلة للانقياد له والخضوع له، وفي المقابل يكون الإعراض عن الله والغفلة عنه والخوف من المخلوقين سبب للشرك بالله تعالى،

[٢٠]- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٣/ ٢٠٧)

ISSN : 2410-1818

ولذا نجد أن بعضا من شياطين الإنس قد سلكوا مسلك التخويف ليكونوا أربابا وآلهة من دون اللّه، كما حكى اللّه تعالى عن فرعون طغيانه وتمرده على خالقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٤] .

فيتحول الخوف من المخلوقين إلى شرك باللّه تعالى، لأن المشرك لما غاب اللّه عن قلبه صار مهيئاً لأسباب الخوف التي يشاهدها ويتأثر بها حسا، فالجزاء من جنس العمل، ولهذا يقول اللّه تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة:٦٧]، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الحشر:١٩]

إن الخوف من اللّه هو العاصم من الخوف من الشيطان وأولياءه، فلا يمكن أن يجتمع إيمان باللّه وخوف من مخلوق، فكلما عظم الإيمان باللّه تعالى وتوحيده والخوف منه اضمحل الخوف من الشيطان وأولياؤه، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥] لأن مدارك الإنسان وأحاسيسه ومشاعره ومنها الخوف إنما يتحكم بها قلب واحد لا قلبين كما قال اللّه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[الأحزاب:٤] فإذا كان كذلك فمن البديهي أن يستحكم الخوف على جوارح الإنسان وإرادته إذا ما تمكن من صاحبه، ولا يكون ذلك إلا إذا غاب الخوف من اللّه تعالى كما قدمنا، يقول سيد قطب : إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه ويلبسهم لباس القوة والقدرة ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول وأنهم يملكون النفع والضر، ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد، والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن يتضخم الشر وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً لا تقف في وجهه معارضة ولا يصمد له مدافع ولا يغلبه من المعارضين غالب الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا فتحت ستار الخوف والرهبة وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون

ISSN : 2410-1818

المعروف منكراً والمنكر معروفاً وينشرون الفساد والباطل والضلال ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له وجلاء الحق الذي يطمسونه.

والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عارياً لا يستره ثوب من كيده ومكره ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ليكونوا منها على حذر فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضر هي قوة الله وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء فلا تقف لهم قوة في الأرض لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان [٢١]

إن المشرك يتوقع من معبوده الضر قبل أن يتوقع منه النفع لأن النفع يصعب جلبه من هذه الجمادات والأصنام التي لا حول لها ولا قوة، ولأن النفع غالبا لا يكون إلا بأخذ أسبابه الجالبة له وبالتالي فإن حصوله لا يمكن أن ينسبه إلى أوليائه من شياطين الإنس والجن بحسب العادة والعقل، بخلاف الضر فإنه متوقع في كل حين لاسيما وقد أخبر القرآن بأن المصائب بما فيها من ضرر إنما تقع نتيجة حتمية لمعاصي الإنسان قال تعالى ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ . . . ﴾ الآية [النساء:٧٩] وقال تعالى :﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] ولما كان الشرك أعظم المعاصي فإنه من البديهي أن تكون عواقبه في الدنيا مساوية لنوع المعصية التي هو فيها، ما يجعل المشرك ينسب الضر لأولياءه وأنها هي التي فعلت ذلك، وهذا الأصل متمكن منهم .

ومن هنا تتضح نكتة تقديم الضر على النفع في بعض الآيات التي تتحدث عن حال المشركين كما قال تعال، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ

[٢١] - في ظلال القرآن (٢ / ٢)

ISSN : 2410-1818

قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[يونس:١٨]، يقول الطاهر بن عاشور في تعليقه على تقديم الضر على النفع في الآية : وقُدم ذكر نفي الضر على نفي النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها[٢٢] يخوفون عبدَتها بأنها تُلحق بهم وبصبيانهم الضر، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنه أسلم ودعاها إلى أن تُسلم فقالت : (أما تخشى على الصبية من ذي الشَّرى) فالابتداء بنفي الضر لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصَّادَّة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام[٢٣]، لأن الأصل في طبع الإنسان الحرص على جلب ما ينفعه ودفع ما يضره إلا أنه في حال الشرك فإنه يصير دفع ما يضره مقدما على جلب ما ينفعه بسبب غلبة الظن عنده بأن معبوداته إنما وظيفتها هو الضر فحسب .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[هود:٥٤] تخبر الآية عن حال المشرك وكيف أنه بقدر ما يخاف من آلهته المزعومة صار يجعل هذا الخوف ذريعة للامتناع عن قبول دعوة الحق ونبذ الشرك، فالمشركون يدَعون أن آلهتهم هي التي أصابت هود عليه السلام بالسوء والجنون فجعلته يدعوهم إلى ما دعاهم إليه، ونسوا في نفس الوقت أن هذا الادعاء يعود عليهم بالكذب والإفك فكيف تصيب شخصا بما يعاديها وينبذ عبادتها؟ والأولى بها أن تؤلف قلب مدعويها لعبادتها؟ فسحقا لآلهة لا شأن لها سوى إصابة أولياءها وعابديها بالجنون والخبل، يقول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ نقول إنك ممسوس من بعض آلهتنا، وجعلوا ذلك من فعل بعض الآلهة تهديداً للنّاس بأنه لو تصدّى له جميعُ الآلهة لدكوه دكّاً، والاعتراء: النزول والإصابة، أي أصابك بسوء، ولا شك أنهم يعنون أن آلهتهم أصابته بمسّ من قَبْل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر، وهو كلام غير جار على انتظام الحجّة، لأنه كلام ملفّق من نوع ما يصدر عن

[٢٢] - سادن: لا يطلق فقط على حاجب الكعبة وخادمها فقط، بل يطلق على غيره من حجبة الجوامع وخدمها. ففي حيان - بسام (٣: ١٤٣ و): بعض سدنة الجامع، ويريد به جامع قرطبة، تكملة المعاجم العربية (٦/ ٥٢)

[٢٣] - التحرير والتنوير . الطبعة التونسية (١١ / ١٢٥)

ISSN : 2410-1818

السفسطائيين، فجعلوه مجنوناً وجعلوا سبب جنونه مسّاً من آلهتهم، ولم يتفطنوا إلى دخل كلامهم وهو أن الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة ثائر عليها.[٢٤]

وبالمقابل جعل الله تعالى التوحيد ونبذ الشرك شرطا لحصول الأمن وزوال الخوف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وهذا يعني أن المشرك ما دام متلبسا بالشرك فلن ينعم أبدا بالأمن والأمان إلا إذا تحقق عنده التوحيد الخالص وترك عبادة ما سوى الله فالآية تنص على أن المشرك متلبس بالخوف دوما طالما أنه قد اتخذ مع الله آلهة أخرى من دون الله، لأن لفظ الظلم في الآية هو الشرك، حيث فسره بهذا الرسول الأكرم ﷺ ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: لمّا نزلت (الّذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ) شقّ ذلك على المسلمين؛ فقالوا: يا رسول الله أيّنا لا يظلم نفسه قال: ليس ذلك، إنّما هو الشّرك؛ ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان : ١٣].[٢٥]

وفي نفس السياق وفي معرض الوعود التي وعد الحق تبارك وتعالى بها عباده المؤمنين جعل ذهاب الخوف وحصول الأمن مشروطا بحصول الإيمان والعمل الصالح ونبذ الشرك، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً . .﴾ [النور: ٥٥] فإن هذه الوعود ومنها ذهاب الخوف وحصول الأمن، مشروط بانتفاء الشرك، فالمؤمن مأمور بتحقيق الشروط ومنها عدم الشرك فيتحقق حينئذ الأمن .

ثم إن المشركين الذين عاصروا أنبياءهم لم يقتصروا على تخويف العامة فحسب وإنما توجهوا بعقائدهم نحو أنبيائهم ضنا منهم أنهم يستطيعون أن يفتنوهم عن المهمة التي أوكلت إليهم، والذي من المفترض أن يقبلوا دعوتهم لأنهم اختيار من الله، وإذا كان اختيار ذي البصيرة والحكمة لمقربيه أحكم وأسلم من اختيار الرجل الأمي

٢٤- التحرير والتنوير (١٢ / ٩٨)

٢٥- صحيح البخاري برقم: ٣٣٦٠ باب: من انتظر حتى تدفن (١٤١/٤)

ISSN : 2410-1818

لمقربيه فلا شك أن اختيار الخالق لرسله أحكم والله سبحانه إنما يختار لرسالاته من عباده أفضل الخلق وأكرم البشر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[الحج:٧٥]، وفضلا عن ذلك فإن الرسل مؤيدون بالمعجزات كدليل على صدق ما أرسلوا به، ومع ذلك تجد المشركين يعرضون عن كل هذا منجرين وراء أهواءهم وآلهتهم الباطلة، يقول صاحب أضواء البيان في تفسير قوله تعالى ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار عبدة الأوثان، يخوفون النبي ﷺ، بالأوثان التي يعبدونها من دون الله، لأنهم يقولون له: إنها ستضره وتخبله، وهذه عادة عبدة الأوثان لعنهم الله، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها ستضرهم وتصل إليهم بالسوء، ومعلوم أن أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه، لا يخافون غير الله ولاسيما الأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوَّفوه بها: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾[الأنعام : ٨١][٢٦] .

ومن الجدير بالذكر فإن هناك فرق بين الشرك قبل بلوغ الوحي وبعده، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥] الآية، ولا أدل على ذلك من حال الأصحاب رضوان الله عليهم فإنهم كانوا يعبدون الأصنام كلهم أو جلهم، فلما جاءهم نور الوحي أحيا الله قلوبهم به، بخلاف من ينغمس في الشرك ويصر عليه ويعرض عن نور الوحي وآياته المبهرة فإنه يستحق بذلك أن يكون من أصحاب السعير، يقول السيد في ظلاله: إن الكفر الذي يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه فالذي لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج في الظلام فأما الكفر بعد الإيمان مرة ومرة فهو الكبيرة التي لا مغفرة لها ولا معذرة، إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق واتصل الشارد بالركب واتصلت النبتة بالنبع وذاقت الروح تلك الحلاوة التي لا تنسى حلاوة الإيمان فالذين يرتدّون بعد الإيمان مرة ومرة، إنما يفترون على الفطرة عن معرفة، ويلجون في الغواية عن عمد ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد

[٢٦] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٢ / ٢٤)

ISSN : 2410-1818

فعدل ألا يغفر الله لهم؛ وعدل ألا يهديهم سبيلاً؛ لأنهم هم الذين أضاعوا السبيل بعدما عرفوه وسلكوه وهم الذين اختاروا السيئة والعمى، بعد ما هدوا إلى المثابة والنور[٢٧].

**المبحث الرابع : انتكاس الفطرة**

الفطرة وإن كانت في الأصل سليمة من نوازع الشرك والكفر والمعصية، لكنها تستلزم وتستدعي معرفة الله تعالى والإقرار بربوبيته، بمعنى أنها لو تركت وشأنها لما اختارت ولا توجهت إلا إلى وجهة الإيمان بالله تعالى، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٧٢] إلا أن هذه الفطرة يمكن صرفها عن وجهتها التي خلقت عليه فهي ليست كلون جلد الإنسان الذي لا يمكن تحويله إلى لون آخر .

لأن هذا الاستعداد للإيمان منذ الوهلة الأولى لكلِّ مولود غير كافٍ للوصول إلى الغاية الواضحة التي رسمها القرآن الكريم للإيمان مالم يقترن ذلك الاستعداد بتربية صحيحة وتوجيه سديد وتعليم متقن، وإلا فإن اهتزاز المثل الإيمانية الرفيعة وارد مما يؤدي إلى انحسار الإيمان شيئا فشيئا إلى أن ينسحب ظله من النفوس لا قدّر اللّه، فهذا رسولنا ﷺ فإنه ومع أن الله تعالى اختاره اختيارا ليكون نبيا ورسولا لهذه الأمة فإنه كان قبل نزول الوحي لا علم له بالكتاب ولا بالإيمان قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢] فكان ﷺ يتعبد الليالي ذات العدد في غار حراء يتأمل ويتفكر باحثا عن الحقيقة وعن النور المبين لكن دون نتيجة حتمية تقوده إلى الإيمان بالله تعالى، بينما نجده بعد الوحي صار هاديا بأمر الله إلى طريق الحق، قال تعالى:﴿وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[النساء:١١٣]، يقول السعدي : حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحا، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح،

٢٧ - في ظلال القرآن (٢ / ٢٦١)

ISSN : 2410-1818

وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي ﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم [٢٨].

إذن الفطرة لا بد لها من طريق تسلكه ونورا تستنير به، وهذا الطريق إما أن يكون موافقا للفطرة التي فطر الله الناس عليها وهو طريق الإيمان والوحي وإما أن يكون طريق الهوى فحينئذ تنحرف الفطرة عن منهجها بسبب سلوكها الطريق الآخر .

ومن خلال استقراء الكتاب والسنة نجد أن هناك أسبابا عديدة لانحراف الفطرة عن طريقها الذي هيأه الله لها ومن هذه الأسباب ما يلي:

**أولا**: الوالدان وإلى هذا يشير الرسول ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه، هل تنتج البهية إلا بهيمة جمعاء هل تُحسّ منها من جدعاء)[٢٩] إن الوالدين يؤثران في ولدهما ويحرفانه عن مقتضى الفطرة إلى حد أنهما يحولانه بالتلقين وبالقدوة لهما إلى غير الإسلام، ومن هنا نعلم سبب تعظيم قدر الوالدين المؤمنين خصوصا لما لهما من أهمية في ترسيخ منهج الله في قلوب الأبناء وحينئذ ندرك لماذا قرنهما الله تعالى مع اسمه في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء:٢٣]

**ثانيا** : البيئة والمجتمع ابتداء بالأسرة، وانتهاء بالتيارات الاجتماعية والفكرية المتعددة والمنتشرة، فهي التي تحدد مسار هذه الفطرة، ولافرق هنا بين أن يكون الإنسان في السنوات الأولى من حياته أو كبيرا ناضجا، فالمجتمع يؤثر في أفراده صلاحا أو فسادا تبعا لنوع الأفكار والمبادئ المحيطة به، فأمر الله توخي ذلك باتخاذ الصحبة الصادقة

[٢٨] - تفسير السعدي (١ / ٧٦٢)

[٢٩] - صحيح البخاري برقم : ١٣١٩ باب ما قيل في أولاد المشركين ( ١ / ٤٦٥ )

ISSN : 2410-1818

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] وزيادة في حرص الشرع على المحافظة على المجتمع بعيدا عن شوائب الأفكار المنحرفة ودعوات الشيطان وأوليائه الصادة عن جادة الخير والصلاح أوجب الله تعالى على المسلمين فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتطهير المجتمع من المفاسد المادية والمعنوية التي تؤثر في فطرة الإنسان وتحرفها عن وجهة الدين الحق قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

**ثالثا:** الجحود والاستكبار قد يجحد الإنسان الدلائل الدالة على عموم ربوبية الله وعموم خالقيته مع استيقانه بها وبما تدل عليه متنكرا لكل الحقائق والبراهين، وسبب ذلك هو الكبر الذي تهيأت بعض النفوس له، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٣ -١٤] أي لما جاءتهم آياتنا بينة واضحة قابلوها بالتكذيب والرد وجحدوا بها في ظاهر أمرهم وعلموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها ظلما من أنفسهم ؛ أي على غير استحقاق للجحد ولكن بدافع سجيتهم الملعونة وطلبا للعلو في الأرض واستكبارا عن اتباع الحق، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] .

**رابعا:** الشيطان، ذكرنا فيما سبق أن أحد أهم الأسباب لانحراف الإنسان عن فطرته هو الشيطان، فإن محاولاته في الصد عن سبيل الله تعالى بدأت مع بداية الإنسانية بل مع بداية الخلق عندما استكبر على أمر خالقه في السجود لأبينا لآدم فأبعده الله تعالى ولعنه، عندها أقسم بربه على إضلال بني آدم إلا المخلصين، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣] وقوله تعالى ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦ -١٧]

ISSN : 2410-1818

فالفطرة وإن كانت مجبولة على الحق إلا أنه لا بد لها من قائد يقودها ويأخذ بها إلى الوجهة الصحيحة وربما إلى الخاطئة وكل ذلك يعتمد على نوع السائق لها والموجه لوجهتها، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: (تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقِهُوا وَتَجِدونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأتِي هؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهؤُلاَءِ بِوَجْهٍ)[٣٠]، ومثله حديث أبي أسامة عن هشام عن أبيه أن حكيم بن حزام أعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير قال سألت رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله أشياء كنت أصنعها في الجاهلية كنت أتحنث بها - يعني أتبرر بها - قال فقال رسول الله ﷺ أسلمت على ما سلف لك من خير[٣١]، فقوله ﷺ (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) وقوله ﷺ (أسلمت على ما سلف لك من خير) يدل على أن الإنسان السوي الطبع يسوقه طبعه السليم إلى اختيار الحق وسلوك طريق الهداية والعكس صحيح، بمعنى أن الإنسان وبسبب توفر أسباب الهداية وكذلك أسباب الضلال ينصبغ بصبغة خاصة تكوّن له شخصيته وتميزه عن غيره، وتلك الصبغة هو الذي يختارها اختيارا طوعيا لا قهريا.

ولو تأملت حال المشرك في وجهته التي اختارها لنفسه لوجدته منكوسا في فطرته انتكاسا ظاهرا لا يلتبس على أحد، فهو ينصر أولياءه بالباطل ويدافع عنهم ويبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس، والأعجب من ذلك هو حبه العظيم لأولياءه، لأن عادة الإنسان أن يبذل أعظم ما يملك لأعظم محبوب له، ولذلك كان المشرك يعطي أعظم الحب لأعظم معبود عنده وهي الأنداد التي يعبدها من دون الله، ولذلك وصف الله تعالى حال المشركين بأنهم يحبون معبوداتهم أعظم من حبهم لله، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾[البقرة:١٦٥] يقول الطاهر بن عاشور : والمحبة هنا مستعملة في معناها الحقيقي وهو مَيل النفس إلى الحَسن عندها بمعاينة أو سماعاً

٣٠ - صحيح البخاري برقم : ٦٠٥٨ باب ما قيل في ذي الوجهين (١٨/٨)
٣١ - صحيح البخاري برقم : ١٤٣٦ باب من تصدق في الشرك ثم أسلم (١١٤/٢)

ISSN : 2410-1818

وحصول نفع محقق أو موهوم لعدم انحصار المحبة في ميل النفس إلى المرئيات، فنحن نحب الله لما نعلمه من صفات كماله ولما يصلنا من نعمته وفضله ورحمته، ونحب رسوله لما نعلم من كماله ولِما وصل إلينا على يديه ولما نعلم من حرصه على هدينا ونجاتنا، فقوله : ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مفيد لمساواة الحبين؛ لأن أصل التشبيه المساواة، أي كيفما قدر تحب محب لله فحب هؤلاء أندادهم مساو لذلك الحب، فمحبة هؤلاء أندادهم مساوية لمحبة محبي الله إياه أي مساوية في التفكير في نفوس المحبين من الفريقين فيصح أن تقدر يحبونهم كما يجب أن يحب الله أو يحبونهم كحب الموحدين لله إياه أو يحبونهم كحبهم الله، وقد سلك كل صورة من هذه التقادير طائفة من المفسرين[٣٢].

وقد يزداد الشرك عند المشرك حتى يساوي معبوده بالله الواحد لأن الإشراك يستلزم الإعراض عن الله في أوقات الشغل بعبادة ذلك الشريك، وهذا ما عبر عنه القرآن بـ (العدل) فإنهم يعدلون أي يجعلون له نظيراً في العبادة منقول العرب: عدلت فلاناً بفلان إذا جعلت له نظير اًو عديلاً، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٦/٩٧، ٩٨]، وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق والخالق - قبحهم الله تعالى - كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [١٣/١٦]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٦/١٧]، وقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ الآية [٣٠/٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات[٣٣].

**المبحث الخامس : المشرك والقرآن**

إن ما يصيب المشرك عند سماعه للقرآن لأمر تذهل له العقول والقلوب فهو ابتداء لايحب أن يسمعه قدوته في ذلك قرينه الشيطان الرجيم ووليه من دون الله فهما بشأن القرآن سواء لا يستمعون له ولا يحبون استماعه بلا ولا يستطيعون سماعه فإذا سمعوه

٣٢ - التحرير والتنوير (٢ / ٩٠ - ٩١) بتصرف
٣٣ -أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن بتصرف (٢/٧)

ISSN : 2410-1818

كان بينهم وبين فهمه وتدبره حجابا مستورا وسدا منيعا، وقد ورد بيان حال المشركين مع القرآن في عدة مواضع في القرآن، فعلى سبيل المثال قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام:٢٥] ومثلها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[الإسراء:٤٦] وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥]

وقد أجاد ابن القيم رحمه الله في بيان حال المشركين مع القرآن في تفسيره وبسط القول فيه، مما دعاني إلى نقل بعض مما قاله ههنا، ففي معرض حديثه عن أنواع العقوبات التي سلطها الله على المشركين بسبب إعراضهم عن الحق قال : وههنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان وهي الختم والطبع والأكنة والغطاء والغلاف والحجاب والوقرة والغشاوة والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمى والصد والصرف والشد على القلب والضلال والإغفال والمرض وتقليب الأفئدة والحول بين المرء وقلبه وإزاغة القلوب والخذلان والتثبيط والتزيين وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم وإماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها فتبقى على الموت الأصلي وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية وجعل القلب قاسيا لا ينطبع فيه مثال الهدى وصورته وجعل الصدر ضيقا حرجا لا يقبل الإيمان.

ولا ينفك المشركون في كل زمان ومكان من الاعتراض على ما وسموا به من الطبع عن سماع القرآن وعدم فهمه فنسبوا هذا الطبع إلى الله وأنه أبعدهم عن فهمه وتدبره ولولا ذلك لآمنوا به فأجابهم الله بأن هذا الطبع والإبعاد والختم إنما هو عقوبة دنيوية بسبب عدم إيمانهم فقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الأنعام:١١٠] يقول ابن القيم: احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه فكيف تقوم به عليه الحجة وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فأكذبهم الله وقال ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ

ISSN : 2410-1818

اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[النساء:١٥٥] وفي الآية الأخرى ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[البقرة:٨٨] فاخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة والمعنى لم نخلق قلوبهم غلفا لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها .

وأما الحجاب في قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[فصلت:٥] وقوله ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء:٤٥] فالمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به ويبينه قوله ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ [الإسراء:٤٦] وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾[فصلت:٥] فأخبر سبحانه أن ذلك جعله فالحجاب يمنع رؤية الحق والأكنة تمنع من فهمه والوقر يمنع من سماعه، ووصفه بكونه مستورا أي مستورا عن الإبصار فلا يرى [٣٤].

فإذا كان ما تقدم يصف حال المشركين وشدة نفورهم من سماع القرآن وتدبره، فإننا نجد أن القرآن إنما نزل على النقيض مما وصفوا به، فتارة يصفه الله تعالى بالنور وتارة هدى وتارة شفاء ورحمة ومعجزة خالدة ودستور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يجمعه لفظ مبارك لأن البركة تعني النماء والزيادة فهو مبارك بكل معانيه السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩ ، ولقد بين الله تعالى في القرآن مجالات التفكر والتدبر وجعله مجالا واسعا وهو الكون كله بما ترى أعيننا وما تسمعه آذاننا وما تشعر به قلوبنا حتى لا يضيق على أحد بلوغ معانيه والتزود من معينه مهما تباينت مستوياتهم واختلفت مداركهم وأفهامهم، فقد جاء القرآن هداية للناس كافة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

٣٤ - التفسير القيم لابن القيم (١ / ١٦٠) بتصرف

ISSN : 2410-1818

لايَعْلَمُونَ﴾[سبأ:٢٨] ويستثنى من ذلك من أصر على الضلال وهم المشركون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّيُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١] ويقول الحق تبارك وتعالى أيضا: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

وقد أفاض القرآن من ذكر تلك المجالات إلا أنه جمعها في أول سورة الجاثية ثم عقب بعدها بأن من أعرض عنها فلا مجال له عندئذ أن يسلك طريقا غيرها للوصول إلى الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية : ٣ -٦] وقد روعي في فواصل الآيات المتقدمة مراتب العلم المؤدي للإيمان فالآية الأولى ختمت بقوله تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الثانية ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وفي الثالثة ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن من أراد الحق فأمامه ثلاث سبل للوصول إليه وهي :

**أولا**: أن يسلك طريق الحق ويستجيب لنداء الخالق دون حاجة إلى إعمال الفكر لاسيما عند العامة الذين لا يمكنهم البحث والاستقصاء – وهو ما أطلق عليه البعض إيمان العجائز، وإنما يمكنهم النظر إلى ملكوت السموات والأرض إجمالا، فهؤلاء قد هيأ الله لهم آيات واضحة كبيرة تسوقهم للإيمان بخالقها كالسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب فهي آيات واضحة تدل على عظم خالقها وقدرته كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ﴾[غافر:٥٧] ولا تكون هذه إلا بخالق خلقها فيصبح عند ذلك على يقين أنه قد سلك طريق الحق.

**ثانيا**: أن يتشوف الإنسان إلى الحق بإعمال أدوات العلم التي وهبها الله إياها كالسمع والبصر والفؤاد بالإضافة إلى الإيمان الفطري، لا سيما إن كان ممن حباه الله العلم بنوعيه الديني والدنيوي فإنه يستطيع أن يزداد بها إيمانا إلى إيمانه، وهي التي حددها

ISSN : 2410-1818

الله تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨] وقد أكد الله تعالى بأن هذه الوسائل إنما تفيد طائفة من العباد وهم الذين حباهم الله العلم، فهم الذين تسوقهم عقولهم للإيمان والخشية قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [فاطر:٢٨]، ولعل هذه المرتبة هي التي قصها الله علينا عن نبي الله إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: ٧٥] ونلاحظ انتهاء الآية بقوله:﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ إشارة إلى أن إعمال الفكر والبحث في الدقائق إنما يزيد الإنسان إيمانا فوق إيمانه الفطري ليرتقي إلى مرتبة اليقين.

**ثالثا** : أن يعود الإنسان إلى إعمال النظر مرة تلو المرة في الآيات المتكررة الحصول في ملك الله، كاختلاف الليل والنهار وطلوع الشمس وغروبها، والنوم في الله والنهار كما قال تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[الروم:٢٣] وتسيير الرياح وتكوين السحاب ونزول المطر وإحياء الأرض، وهذه تشبه الحالة الأولى من حيث سهولة مشاهدتها والوقوف عندها والاستنارة بها في طريق الإيمان إلا أنها تحتاج إلى مزيد تدبر وتأمل لتكرر حصولها مما يؤدي إلى إلفها والغفلة عنها، وهذا ما أشارت إليه الآية المتقدمة من سورة الجاثية.

يقول الآلوسي: وتنكير ﴿ءايات﴾ للتفخيم كما وكيفا، والمعنى إن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنها لابد لها من صانع فآمنوا بالله تعالى وأقروا، وإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى أخرى وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً وشدة وضعفاً وحرارة وبرودة عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل وهو على سبيل من أن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان، ثم العقل لما كان مدارهما أي الإيمان والإيقان، ونعني به العقل المؤيد بنور

ISSN : 2410-1818

البصيرة جعله لخلوص الإيقان من اعتراء الشكوك من كل وجه ففي استحكامه كل خير، كأنه قيل إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل[٣٥].

**المبحث السادس : وحي الشيطان**

يميل الإنسان لدعوة الآخرين إلى ما يؤمن به، عبادة كان أو عادة فهو يدعو إلى فكرته سواء بلسان حاله أو مقاله، وهذا أمر بدهي نراه في جميع أصناف الناس، ولافرق هنا في كونه يدعو إلى الخير أو الشر أو إلى الكفر أو الإيمان، وهذا أمر قرره القرآن قال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً . . . ﴾ {النساء:٨٩} ولهذا يصف حال هؤلاء الشيخ الشعراوي متطرقا لسبر أغوارهم النفسية التي هي مقصدنا في هذا المبحث فيقول : فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لايكون هناك أحد أفضل من أحد، مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين في مصلحة حكومية، ويكون في بينهم واحد مختلساً ولا يؤدي عمله على الشكل المطلوب، لذلك فهو لايحب أن يؤدي الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان، ويريدهم فاسدين، ويحاول أن يغريهم بالفساد حتى يكونوا مثله؛ كيلا يظهره أمام نفسه بمظهر النقيصة وحتى لايكون مكسور العين أمامهم[٣٦].

في حين يسلك المؤمن مسلكا آخر في دعوته ألا وهو مسلك الدعوة للخير، لهذا استثناهم إبليس الرجيم حاكيا قوله رب العزة بقوله ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠] وإذا كان هذا الصنف هو من استثناه الله على وجه الخصوص من إغواء إبليس فلا جرم أن يكون من سواهم تحت سلطة إبليس وفي إمكانه إغواؤهم كيفما يريد، ولعل المشركين هم الطائفة الأولى استجابة لوحي الشيطان ومصائده، وهي

٣٥ - تفسير روح المعاني للألوسي (١٨ / ٤٩٨)
٣٦ - تفسير الشعراوي (١ / ١٧٣٩)

ISSN : 2410-1818

التي تتصدر تلك المجاميع في الدعوة إلى سبيله ودعوته، فالمشرك لا يقف عند حد الكفر بالله تعالى بل إنه يسلك سبيل الشيطان لدعوة غيره.

وقد وضح القرآن طريقة دعوة أولياء الشيطان لأوليائهم، يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] فالشياطين توحي لأوليائها – وقد تقدم معنا تفصيل ذلك - كما تخبرنا الآية بأن طاعة أولياء الشيطان هي كطاعة الشيطان، فلا فرق بين أن يطيع الإنسان وسوسة شياطين الجن المباشرة وبين أن يطيع وسوسة شياطين الإنس بعد أن يوحي إليهم الشيطان، وقد سمى القرآن كل ذلك شرك، يقول الطاهر بن عاشور : المراد بأولياء الشّياطين: المشركون، والمجادلة المنازعة بالقول للإقناع بالرأي، والمراد هنا المجادلة في إبطال أحكام الإسلام وتحبيب الكفر وشعائره، مثل قولهم : كيف نأكل ما نقتل بأيدينا ولا نأكل ما قتله الله، وقوله : ﴿وإن أطعتموهم﴾ أي : إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه، وهو الطّعن في الإسلام، والشكّ في صحّة أحكامه، ﴿إنكم لمشركون﴾ جوابا لشّرط وتأكيدا لخبر لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشّياطين، وإن لم يَدْعو لله شركاء، لأنّ تخطئة أحكام الإسلام تساوي الشرك، أو إنَّكم لصائرون إلى الشّرك، فإنّ الشّياطين تستدرجكم بالمجادلة حتّى يبلغوا بكم إلى الشرك.[٣٧]

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي زميل قال : كنت قاعدا عند ابن عباس، وحج المختار بن أبي عبيد، فجاء رجل فقال : يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق فنفرت وقلت: يقول ابن عباس : صدق؟ فقال ابن عباس : هما وحيان، وحي الله، ووحي الشيطان، فوحي الله تعالى إلى محمدﷺ، ووحي الشيطان إلى أوليائهم، ثم قرأ : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾[٣٨].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه يتجلى جانب آخر من وحي الشيطان لأوليائه حيث جادله قومه في ذات الله، فكان جداله لهم يغلب عليه الطابع العقلي والبرهان الحسي، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ

٣٧ - التحرير والتنوير. الطبعة التونسية (٨ / ٤٢)
٣٨ - تفسير ابن أبي حاتم (٤ / ١٣٧٩)

رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ *وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٨٠ -٨١] والمؤمن لا يستغني عن عقله في حياته أبدا بل إن المؤمن أولى من غيره في ذلك لاسيما أن طريق الهدى والرشاد لا يتعارض أبدا مع العقل بل العكس فإن طرق الضلالة والغواية هي التي تتعارض وتتنافى مع الحق، لأن الحق ومنهجه لا يتعارضان البتة ذلك والسبب في ذلك لا يخفى على من له مسكة من عقل حيث أن منزل الكتاب والحق هو الحق ذاته العليم الخبير، بينما نجد تخبط أصحاب الهوى على اختلاف مشاربهم، وتعارض مناهجهم وتصادمها مع الحق تصادما بينا لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته وطبع على قلبه .

جاء في التفسير الميسر لأسعد حومد تعليقا على الآية السابقة : وكيف أخاف أنا من هذه الأصنام التي تعبدونها، وهي لا تملك لنفسها، ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً، ولا تخافون أنتم من أنّكم أشركتم في عبادة الله هذه الأصنام، وهو القادر القاهر، وهو تعالى لم ينزل حجّةً ولا برهاناً ولا دليلاً على وجوب عبادة هذه الأصنام؟ وفي مثل هذه الحال التي نحن فيها : أي الجانبين – أنا وأنتم – أحقّ بأن يكون مطمئناً؟ من عبد أصناماً حجارةً لاتضرّ ولاتنفع؟ هذا إن كنتم تعلمون وتقدّرون الأمور[٣٩].

وقد يفهم من الاستثناء في قوله ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ إمكانية حصول ضرر على المؤمن من تلك الأصنام، فإبراهيم عليه السلام نفى عن نفسه الخوف من آلهتهم ولكنه استثنى بعد ذلك بقوله ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ أي لا أخاف ما تشركون بالله من أوليائكم شيئا ولكن قد يصيبني شيء منها إذا شاء الله، فهل يمكن أن يقع من تلك الجمادات - التي وصفها الله تعالى في غير ما موضع من كتابه بأنها لا تضر ولا تنفع - الضر أو النفع لوجود الاستثناء؟

لقد جاء الاستثناء مقرونا بمشيئة الله تعالى ولا شك أن كل شيء حاصل في ملك الله إنما هو بمشيئة الله تعالى كما قال ربنا : ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الإنسان:٣٠] فظاهر الآية أن إبراهيم عليه السلام نفى خوفه من آلهتهم ثم استثنى ما

٣٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (١ / ٨٧١)

ISSN : 2410-1818

قد يقع بمشيئة الله سبحانه تأدبا مع الله لأنه على علم أنه لا يحصل شيء في هذا الكون إلا بأمر الله وإذنه، وهذا مما قد يخفى على من لا معرفة له بأسلوب القرآن، فقد جاء في التفسير الوسيط: وقوله ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء مما قبله أي : لاأخاف معبوداتكم في جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئاً من المكروه يصيبني من جهتها بأن يسقط علي صنم يشجني، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته لا بقدرة أصنامكم أو مشيئتها، ويرى ابن عطية وغيره أن الاستثناء منقطع على معنى : لا أخاف معبوداتكم ولكن أخاف أن يشاء ربى خوفي مما أشركتم به وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه، وعلى نهاية استسلامه لمشيئة الله سبحانه، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان وكافر بتلك الآلهة، إلا أنه ترك الأمر كله لمشيئة الله، وعلق مستقبله على ما يريد الله فيه، وقوله ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي : أن علم ربي وسع كل شيء وأحاط به، فلا يبعد أن يكون في علمه إنزال ما يخيفني من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب[٤٠].

وهنا مسألة وهي أنه قد يقع بعض ما يدعو به المشرك من جلب نفع أو دفع ضر حال دعائه أو قريبا منه، فيعتقد هذا الداعي أنه قد استجابت آلهته له ولبت طلبه، وهذا إنما هو فتنة له واستدراج له، بل هو عقوبة عاجلة لهذا الداعي الضال، لأنه لما أعرض عن عبادة الله الواحد الأحد وأصر على عبادة تلك المعبودات وأشرك بالله تعالى، كانت عقوبته أن يحصل له ما يتمنى حال دعاءه لها لكي يمضي في طريق الشرك، فيهلك على تلك الحال ليكون من أصحاب النار، كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الأنعام:١١٠]، وقد فصلت الحديث عن هذا في المبحث الخامس .

يقول ابن عثيمين: (فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛ فما هو الجواب؟ فالجواب: عن هذا أن هذه الأصنام لم توجِد ما دعوا به قطعاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ

٤٠- التفسير الوسيط (٢ / ٢٣٤)

ISSN : 2410-1818

الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، ولقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] ؛ فيكون حصول مادعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عزّ وجلّ؛ لكن قد يُمتحَن الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً من الله عزّ وجلّ؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به)[٤١].

**الخاتمة :**

العلم هو المسلك الوحيد للمعرفة عموما، ولمعرفة توحيد الله خصوصا، قال تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] وأعني بالعلم هنا علم التوحيد المقيد بالكتاب والسنة وفهم السلف، لأن العلم علمان علم دنيا وعلم آخرة، أما علم الدنيا فقد هيأ الله أسبابه وبث أسراره وما على مريده إلا سلوك سبيل البحث والتجربة لتحصيله، أما علم الآخرة فقد غيبه الله تعالى عن خلقه تمحيصا لهم وتمييزا ممن يسلك طريق الحق ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فلا سبيل للوصول إليه إلا بالخبر الصادق، عن طريق الوحي، ولاوحي بعد رسول الله ﷺ لأنه خاتم الأنبياء والرسل قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب:٤٠]، وهو يشمل العلم بالله واليوم الآخر، وهو أعظم العلوم على الإطلاق، لأن معرفة الله تعني معرفة الذات الإلهية وأسمائه وصفاته، ولأنه علم يترتب عليه سعادة الروح في الدنيا وخلاصها من العذاب في الآخرة، .

ولقد قدم الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ﷺ أمر التوحيد وجعله من أوائل المهام اللازم معرفتها قبل كل شيء، وقد اعتنى رسول الله ﷺ بهذا الأمر وأولاه اهتمامه فترة حياته، بل إن جميع الأنبياء والرسل قد جعلوا شأن توحيد الخالق في أولويات مهامهم، لأنهم علموا أنهم ما أرسلوا إلا لذلك كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

٤١- تفسير القرآن للعثيمين (٤ / ١٦٧)

ISSN : 2410-1818

وهنا يمكنني أن أبرز بعض أهم النتائج التي لاحت في خاطري بعد توفيق الله وهي كالتالي :

١) موافقة العقل للنقل والفطرة للدين، فلا تعارض أبدا بين ما أوحاه الله تعالى لرسله وبين العقل الذي خلقه الله تعالى لعباده، وإنه يمكن إعمال العقل السليم في الجانب العقدي لأنه يعضد أدلته ويبرز أهميته وينسف أباطيل الملحدين وأراجيف الزائغين .

٢) خطورة اتباع خطوات الشيطان لأنها سبب في كل خسارة في الدنيا والآخرة، ومعرفتها لا تتم إلا بالعلم واتباع نور الوحي، ولأن اتباع الشيطان شرك وطاعته عبادة له وهي كفر بالله تعالى .

٣) دقة وخطورة الشرك في آن واحد مما يستلزم معرفة دقائقه وأوصافه وأنواعه والإلمام بتفاصيله خشية الوقوع فيه .

٤) المفاسد الوخيمة التي يتركها الشرك على صاحبه أو أصحابه وأثره السلبي الجلي على الفرد والمجتمع.

٥) الخلل الكبير الناشئ في أفهام المشركين وما يترتب عليه من قلب للحقائق واتباع للأهواء وطمس للدليل الرباني ومخالفة الحق والإصرار على الباطل بغير دليل ولا برهان.

٦) وفي المقابل نجد وضوح الأدلة التي ساقها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ﷺ على انحراف المشركين عن المنهج الحق، ومن تلك الأدلة عزوفهم عن سماع القرآن وتدبره وامتناعهم عن إقامة حججه

ولعل من أهم التوصيات التي لا بد منها في ختام هذه المجموعة من المباحث ما يلي:

١) أن يتم الاهتمام بهذا الجانب، لأنه السبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، فلا سبيل للفوز والنجاة إلا بتوحيد الخالق كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]

ISSN : 2410-1818

٢) ولأنه لا يمكن أن ننشر الحق والنور الإلهي مع وجود هذه العقبة الكئود بين الناس والواقع يؤيد ذلك، من جانب آخر فإنه لا بد من التخلية قبل التحلية، وأي تحلية تتم مع وجود هذا السم الزؤام .

٣) ولكي يتم نشر هذا الخير المتمثل بتوحيد الله سبحانه ونبذ الشرك لا بد أن يكون شأن التوحيد من أولى مهام الدعاة والمعلمين والوعاظ والخطباء والمربين، وأن لا يغفلوا أبدا عن هذا الأمر مهما بلغ بهم الظن أن الناس على خير وأنهم قد بلغو الحصانة من الشرك فإن الله تعالى يقول : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

**المصادر والمراجع :**


١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ١٣٩٣ هـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد موقع التفاسير http://www.altafsir.com

٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

٤) التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م

٥) تفسير ابن أبى حاتم الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي المكتبة العصرية - صيدا، عدد الأجزاء / ١٠ تحقيق : أسعد محمد الطيب

٦) تفسير ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المحقق: سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩

٧) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي أبو الفضل دار إحياء التراث العربي - بيروت

ISSN : 2410-1818

٨) تفسير الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين دار النشر / دار إحياء التراث العربي
٩) تفسير السعدي عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م عدد الأجزاء : ١
١٠) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، ١٩٩١
١١) تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي
١٢) التفسير القيم لابن القيم، جمع وترتيب/ محمد أويس الندوى، دار الكتب العلمية، بيروت
١٣) التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوى، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٨
١٤) تهذيب الآثار مسند ابن عباس أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة
١٥) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم محمد بن فتوح الحميدي دار النشر / دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م تحقيق : د. علي حسين البواب الطبعة: الثانية
١٦) دعوة التوحيد، محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦
١٧) صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي دار ابن كثير، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ تحقيق : د. مصطفى ديب البغا
١٨) المسند الصحيح المختصر مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت
١٩) الفروق اللغوية تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين الطبعة: الأولى
٢٠) في ظلال القرآن سيد قطب، موقع التفاسير http://www.altafsir.com
٢١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان محمد فؤاد عبد الباقى دار النشر / دار الفكر - بيروت

ISSN : 2410-1818

٢٢) مسند أحمد بن حنبل المحقق : شعيب الأرنؤوط وآخرون مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

٢٣) المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار دار الدعوة تحقيق : مجمع اللغة العربية

٢٤) الوسيط محمد سيد طنطاوي مصدر الكتاب موقع التفاسير http://www.altafsir.com

٢٥) المعجم الكبير سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني مكتبة العلوم والحكم - الموصل الطبعة الثانية ١٤٠٤ - ١٩٨٣ تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي

٢٦) تكملة المعاجم العربية رينهارت بيتر آن دُوزِي (المتوفى: ١٣٠٠هـ) نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، جمال الخياط الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية الطبعة: الأولى، من ١٩٧٩ - ٢٠٠٠ م